المحاضرة العاشرة:

الذاتية في الدراسات التاريخية

المنهج العلمي عادة مايكرس الموضوعية، ويتجرد من الأهواء والعواطف. لكن هل استطاع المنهج التاريخي أن يولد حقائق موضوعية؟ وهل الاتفاق دليل على الموضوعية في الدراسات التاريخية؟

إن أحد غايات العلم والفلسفة تحرير العقل من سيطرة الأهواء وبلوغ الوعي، وباعتبار التاريخ علما يسعى إلى تحقيق هذا الهدف فقد اصطدم هذا العلم بجدار الذاتية أثناء تطبيق هذا العلم لمنهجه من خلال ممارسة التحليل والنقد،لأن المؤرخ يمارس هذا النقد والتحليل على ذاته قبل أن يسقطه على الأخرين، فيقع في نزاع مع نفسه، والمؤرخ لا يستطيع أن يقيم القطيعة مع ذاته وعواطفه في كثير من المواقف لأن الظاهرة التاريخية تعتبر جزء من الذات الدارسة، وهنا تكمن الصعوبة أن المؤرخ مطالب بتحديد مذهبه أو وجهته و في غالب الأحيان سيختار المؤرخ الشواهد التاريخية التي تؤيد مذهبه ، وبدل أن يصبح المنهج التاريخي أداة لبلوغ الحقيقة يصبح أداة لتبرير حقيقة ما. ولذلك فإن الموضوعية في التاريخ لا تعني مطالبة المؤرخ بأن تكون روايته للأحداث مستقلة عن كل وجهة نظر خاصة، لأن ذلك يبدو في كثير من الأحيان مستحيلا، وهذا يعني أن التاريخ يضيق من إقليم الموضوعية.

أن الاختلاف في التاريخ هو سيد الاتفاق، لأن التاريخ إحياء للهوية وخطاب للآخر، وهنا مكمن الاختلاف، ذلك أن الأنا يأبى أن ينصهر في الغير، ويحاول أن تكون ذاته مميزة عن ذوات الآخرين، وغلا فما ضرورة التاريخ؟ فكل من دريدا وفوكو وبختين، تبنوا أن الدراسات التاريخية ليست مطالبة إلى السمو إلى مصاف العلوم الطبيعية، لأن هذا غير ممكن، لكن الممكن هو دراسة الظاهرة التاريخية بمنهج موضوعي قائم على الاختلاف. فدريدا مثلا، يعتقد أن التاريخ يفترض الصيرورة و الصيرورة بدورها تفترض الآخر، لذا يتم دراسة الواقعة التاريخية وفق منهج الاختلاف. أما بختين يعتبر التاريخ حركة تواصل بين الأنا والآخر، ولا يمكن أن نصفه بالوحدة والاتفاق التام على نحو النموذج الرمزي الرياضي.

أن المؤرخ حتى وإن حاول التخلص من الأفكار المسبقة قدر الإمكان فأن محاولته ضعيفة، وهذه الغاية تبدو مستحيلة في كثير من الأحيان. وعلينا أن نميز بين مؤرخ يتنكر لذاتيته، وبين مؤرخ يكتمها لذا فإن الباحث يروض ذاتيته لكن لا يمكن أن يتخلى عنها ، وتظهر المفارقة بين الذاتية لدى الباحث في الظواهر الطبيعية، وبين ذاتية الباحث في الظواهر التاريخية، في أن الأولى كامنة في ذات الباحث فقط بينما الثانية كامنة في ذات الباحث ، وفي ذات صانع الحدث، فإن تمكن المؤرخ من ترويض ذاتيته فإنه لا يمكن أن يروض ذاتية صانع الحركة التاريخية. وهنا تكمن المفارقة بين علوم الطبيعة وعلم التاريخ يجب أن نعترف بأن وجود الموضوعية لا يقترن دائما بالوحدة والاتفاق فقد يكون الاختلاف دلالة على الموضوعية.

أن تفحصنا للموضوعية في البحث التاريخي تفحصا نقديا يجعلنا نجزم بافتقار الدراسات التاريخية لهذه الصفة، إذ أننا لا نستطيع أن ندعي بشيء من الموضوعية ما دمنا خصوما وحكاما في ذات الوقت ، وما دمنا دارسين ومدرسين، لأن الإنسان في البحث التاريخي يصبح هو نفسه جزء من دراسته ويؤثر بصورة لا شعورية في معطيات البحث. وهذا ما حمل الكثير من الفلاسفة على اعتبار الموضوعية " **العدو السري للعلوم الإنسانية سواء على مستوى الوعي العفوي والمحايد للموضوع أو الوعي التأملي أو وعي الوعي عند العلم**".

هذا ويمكن القول في النهاية أن الذاتية جزء لا يتجزأ من الموضوعية في الدراسات التاريخية، والتاريخ يجعل من إحياء ذاتية الفرد وهوية الشعوب أحد أهدافه الأساسية.